عراق اليوم وغدا

د .عبد علي سفيح الطائي ـ فرنسا

إن هناك قاعدة اجتماعية عامة تفسر لنا ظواهر اجتماعية مهمة، وهي) :عندما لم تأخذ عامة الناس دورها الاجتماعي الصحيح، وتقف فوق التل متفرجة نتيجة الحذر والخوف من المستقبل المجهول، ستبرز نواة صلبة من الشباب المتحمسين يغيرون مجرى حركة التاريخ ولكن بصورة عنيفة .(

ولتوضيح هذه القاعدة الاجتماعية سوف نأخذ الأمثلة التالية:

.١الجزائر :بعد الحرب العالمية الثانية ولد شعور الاستقلال من الاستعمار الفرنسي في الجزائر .فالنخب الجزائرية وخاصة في المهجر والتي كانت تمثل أحزاب الاستقلال والتحرير، ففري ق منهم اعطى اولوية للمباحثات مع فرنسا للوصول الى حل يرضي الطرفين، وفري ق آخر اعطى الأولوية للمباحثات مع أمريكا كدولة منتصرة في الحرب الكونية الثانية لتساعدهم في نيل الاستقلال، علما بأن الفريقين كانوا لا يحبذون انتظر الشعب الجزائري طويال ولم تظهر بوادر المخاطرة بعمل انتفاضة شعبية عارمة .في تلك الفترة ا ال تتجاوز اعمارهم الثالثين الحل من اي الفريق ين .بعدها بمدة قصيرة برزت مجموعة صغيرة من ٢٢ شاب سنة بقيادة الباجي مختار ومعه رمضان بن عبد الملك وبلقاسم غرين، برزوا من ريف الجزائر من جبال االطلس في شمال شرق الجزائر وبمباركة رجال الدين، واعلنوا ثورة التحرير المسلحة والتي اعطت مليون شهيد . والجزائر ليومنا هذا تدفع ثمن نتائج هذه الثورة العنيفة، التي لم تسمح للجزائر ببناء دولة مواطنة حديثة ، بسبب تأخر النخب عن وضع الحلول.

. .٢مصر :تحكم مصر في بداية القرن العشرين مرجعيتان مهمتان هما :الحكومة المصرية) المتمثلة بالملك، و (...والمرجعية الدينية) المتمثلة بالأزهر الشريف .(عندما وجدت النخب المصرية بأن الأزهر لم يلعب دوره ا عن واقع معاناة الناس الاجتماعي التحرري، بل أصبح أداة بيد رغبة الحكام واصبح الأزهر بعيد وحاجاتهم، في تلك الفترة وفي عام ١٩٢٨ نشأت جماعة الاخوان المسلمين، وبدأ نشاطه باسم جماعة االخوان في عام ١٩٣٨ وبقيادة حسن البنا . وهذه الجماعة ـ في بداية تأسيسها ـ ال تؤمن بالثورة العارمة، وبعد سنين ولد من رحمها مجموعة صغيرة متطرفة وهي مجموعة(التكفير والهجرة)وعلى يدها اغتيل الرئيس المصري محمد أنور السادات، ومن هذه المجموعة ولدت القاعدة، واحد رموزها هو أيمن الظواهري، جده الشيخ محمد الأحمدي الظواهري كان أحد شيوخ الأزهر في مصر.

. .٣المرجعية الدينية الشيعية :هنا لابّد ان نفصل الكلام عن مرجعيتين شيعيتين هما:

أ .المرجعية الدينية الشيعية في النجف الأشرف :تمثل مرجعية النجف الأشرف المرجعية الدينية التقليدية، ولقد اتهمت المرجعية بانها ال تماشي التطور الاجتماعي والسياسي السريع، ولم تكن قادرة ان تقف أمام الغزو الثقافي والعقائدي غير الأسلامي واتهمت بأنها مرجعية خاملة ..برز من رحم هذه المرجعية شاب لا يتجاوز عمره ٢٣ سنة وهو السيد محمد باقر الصدر ودعا الى بناء المرجعية الرشيدة او الصالحة .فالتف حول السيد محمد باقر الصدر نواة صلبة من شباب الحوزة واسسوا حزبا سياسيا سموه بـ)حزب الدعوة الاسلامية(، والذي يهدف الى بناء الدولة الاسلامية ويؤمن بالثورة الشعبية.

تم اعدام السيد محمد باقر الصدر في عام١٩٨٠ ، واستمر على هذا النهج السيد محمد محمد صادق الصدر والذي سجن في عام ١٩٧٢ مع السيد محمد باقر الصدر والسيد محمد باقر الحكيم، وفي التسعينات اطلق السيد محمد محمد صادق الصدر تسمية المرجعية الناطقة على مرجعيته، وقد اغتيل في ١٩ فبراير / شباط.١٩٩٩

ب .المرجعية الدينية الشيعية في قم :تتميز ايران بثنائية الدين والدولة، وذلك من زمن العصر الاخميني وليومنا هذا .فالدولة اكلت الدين والدين اكل الدولة لا في حالة حكم الشاه الأب والأبن حيث قاما بإلغاء دور الدين، وحاول بناء دولة علمانية حديثة على غرار تركيا اتاتورك .

في هذه الفترة ـ أي اربعينيات القرن الماضي ـ برز شاب من رحم المرجعية الدينة في قم المقدسة، لم يتجاوز الأربعين عاما، وهو السيد روح الموسوي الخميني، والذي نادى بفكرة الحكومة الاسلامية وضرورة النهوض لاقامتها، وقد وضح هذه الفكرة في كتابه كشف الأسرار في عام .١٩٤٤

لم يكن السيد الخميني الأول في التراتبية الهرمية للمرجعية الشيعية في ايران، بل كان يأتي في مرحلة تالية بعد آية الله المرعشي النجفي وآية الله الكلبايكاني وآية الله شريعتمداري، لكن السيد الخميني اشتهر بكونه يؤمن بالعمل السياسي وبإقامة حكومة اسلامية.

قاد السيد الخميني الثورة في١٩٧٩ ، ولحد يومنا هذا لازال زلزال هذه الثورة يحرك ايران ويؤثر على المحيط الاقليمي والعالمي في آن واحد.

الملخص:

ما يهمنا اليوم هو المسألة العراقية التي تزداد تعقيدا وعنفا، ويضعف الأمل بإيجاد حل يرضي الجميع في الأيام القريبة القادمة ..فهل المعادلة الاجتماعية التي شرحناها سوف تساعدنا برؤية المسار العراقي بصورة أكثر وضوحا؟

الجواب :نعم ..إن العراق اليوم يشابه أيام ازمة الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، فالعراق اليوم فريقان، احدهما ينتظر الحل من ايران وهم فريق الأحزاب والتيارات الحاكمة، وفريق ينتظر الحل من المرجعية الدينية الشيعية في النجف الأشرف وهو الحراك الشعبي .

والجواب تأخر، بل أصبح أكثر تعقيدا، والفريقان لا يستطيعان أن يحسما الموقف، فالمرجعية الدينية تدعو الى الحل السلمي وتنبذ العنف، اما السلطة الحاكمة فاستخدمت العنف ضد الشارع مما ادى الى قتل المئات وجرح الآلاف من المتظاهرين، والسبب هو القراءة الخاطئة التي اتخذتها السلطة للحراك الشعبي واعتبرته ثورة شعبية حقيقية ضد السلطة، فكما أخطأ حزب البعث في قراءة الاحتجاجات الشعبية في ١٩٧٧ والتي سميت انتفاضة صفر فالسلطة الحاكمة ـ حينها ـ اعتبرتها ثورة شيعية حقيقية ضد السلطة الحاكمة.

إن الثورة الحقيقية هي التي تغير علاقة المجتمع بالتاريخ وبالسياسة كما حدث في عام ١٧٨٩ للثورة الفرنسية، وفي عام ١٩١٧ للثورة البلشفية الروسية، وفي عام ١٩٧٩ للثورة الاسلامية الايرانية ..

إن المتوقع ان يحدث في العراق إذا طال الانتظار هو بروز نواة صلبة من الشباب الذي يؤمن بأن التغ يير هو بالقوة والعنف، كما حدث في الجزائر عندما تكونت هذه النواة في الريف الجزائري وسحقت كل ما يقف امامها.

إن الذي يؤخر بروز هذه النواة اليوم في العراق، وان تكسب مساحة جغرافية، هو وجود المرجعية الدينية في النجف الأشرف، وليس المقصود بأن المرجعية لا تسمح ببروزها، بل تؤخر بروزها، وسوف تبرز فيما لو لم تستجب السلطة الحاكمة لنداء المرجعية الدينية في النجف الأشرف، ولسوف يحصد العراق سنين طويلة من المعاناة نتيجة ضياع هذه الفرصة الثمينة.